لقاء

الاستشراق المعماري عودة إلى القرن التاسع عشر

القاهرة بعيون قديمة وجديدة

يلقي الباحث المصري المتخصص في الآثار الإسلامية معاذ لافي مجموعة من المحاضرات، حول الاستشراق المعماري، يتناول في كل منها تجربة أحد المعماريين الغربيين الذين تأثروا بالطراز المملوكي في القاهرة. هنا حديث عنها مع «العربي الجديد»

نوال العلي

حين نتحدث عن الاستشراق المعماري، يخطر لنا أن الأمر متعلق بمسألة صورة الشرق في المتخيل الغربي، لكن الباحث المصري معاذ لافي، المتخصّص في دراسة الآثار الإسلامية، يرى أن الأمر ليس كذلك. يوضح في حديث لـ «العربي الجديد»، أنه يفصل دائماً «ما بين الاستشراق المعماري والاستشراق كمفهوم عام، فمن وجهة نظري فإنه ينفصل تماماً بوصفه عملاً أكاديمياً لا يمت لنظرة الغرب إلينا»، لكنه يضيف أن هناك عدة أنماط من الاستشراق المعماري ومنها النمط الفني.

إسقاطات المخيلة الفنية

يقول لافي: «الاستشراق المعماري الفني يعتمد بشكل أساسي على اللوحات التي ترسم الآثار الموجودة في القاهرة، والهدف منه عرض حالة الشارع القاهري أو الشرقي من خلال حركة الناس مختلطة بالعمائر الشرقية، فهو لا يهدف إلى توثيق العمل الأثري نفسه، لذلك في هذا النمط ثمة اختلاط بين مسجد مثلاً وعناصر معمارية ثانية من مخيلته، وهي لا تمت للأثر الأصلي بأي صلة».

ويكمل: «هذا النمط، الاستشراق المعماري الفني، يعتمد في كثير منه على نظرة المستشرق إلى الشرق، وهذا يظهر في شكل المدينة وأوجه الناس وملامحهم وملابسهم في الشارع، خاصة إذا لم يزر الفنان الشرق أساساً، لأن من المعروف أن الرسامين في هذا النمط يعتمدون على رسومات مستشرقين آخرين وعلى كتاباتهم أيضاً، فبالتالي أرى ضرورة تقسيم هذا النمط على حسب المستشرق وزيارته للشرق ورسم العمائر والشارع مباشرة وتأثره فكرياً بما قرأ سابقاً، أم أنه مستشرق يستدعي كل ما هو شائع ونمطي في المخيلة الغربية عن الشرق».

استشراق توثيقي

وإلى جانب النمط الفني من الاستشراق المعماري، فهناك بحسب لافي نمطان آخران؛ هما كما يبين لـ «العربي الجديد» الاستشراق المعماري التوثيقي و«هذا قد يكون تابعاً لمؤسسة أو بجهد خاص وهذا من أكثر الأعمال إخلاصاً للأثر في عملية التوثيق ومثال عليه جول برغوان وبريس دافين المعماريان الفرنسيان اللذان عملا على عمارة القاهرة، أما النمط الثالث والأخير فهو الاستشراق المعماري الخاص، وهو لمعماريين كانوا يعملون على رسم العمائر القاهرية لإعادة استخدام عناصرها الفنية مرة أخرى في أعمالهم الخاصة، أي أنهم يرسمون ليس لهدف فني ولا توثيقي بل لاستخدام هذه النماذج في تصاميمهم المعمارية لاحقاً في مصر وخارجها».

ينظم لافي، بمبادرة شخصية منه، مجموعة من المحاضرات حول الاستشراق المعماري، وفي كل محاضرة يتناول تجربة محددة في «النادي اليوناني» في القاهرة، يقول: «بداية اهتمامي بالاستشراق المعماري نابعة من دراستي للآثار المعمارية نفسها في القاهرة، لأن الفهم الكامل للآثار القاهرية والمملوكية في القاهرة بشكل خاص، لن يكتمل إلا بدراسة الاستشراق المعماري، وبدراسة نظرة المعماريين الأجانب إلى العمارة القاهرية، لأنهم بنوا نظرتهم بناء على تحليل مختلف اعتمدوا فيه على معرفة كبيرة ما زالت غير متاحة لنا اليوم، في القرن الواحد والعشرين».

القاهرة في فيينا

كانت المحاضرة الأولى حول المعماري التشيكي فرانز شمورانز (1845-1892) Franz Schmoranz ، يقول لافي «هو ابن لمعماري ومرمم شهير كان يرمم الكنائس في شرق بوهيميا، وقد بدأ حياته كمعماري يتدرب عند والده إلى أن سافر إلى القاهرة عام 1868 تحت ظل كارل فوندربيتش وهو كان يعمل خاص في رسم الطراز المملوكي، وهو أبرز طراز معماري في المدينة. صمم شمورانز أيضاً قصر قناة السويس لكنه الآن لم يعد موجوداً، لكن أبرز أعماله كان في فيينا وهو الجناح المصري في المعرض العالمي فيها بعد أن أوكل إليه الخديوي إسماعيل هذه المهمة، حيث شاع في القرن التاسع عشر تنظيم المعارض الفنية العالمية الكبرى في العواصم الغربية».

يروي لافي كيف أنه وفي الجناح المصري في فيينا، عام 1873، قام شمورانز بتصميم القاهرة بطابع مملوكي خالص، فقد القبة من قايتباي والمئذنة من خانقاه فرج بن برقوق في قرافة المماليك، وتفاصيل معمارية من مجموعة السلطان إينال، ثم تفرغ تماماً للعمل في الزجاج. واستفاد من الإرث المملوكي ولكنه، بحسب لافي، كان مبتكراً وليس مقلداً، بخلاف نظرائه في أوروبا في وقت كانت الفنون التطبيقية فيه مزدهرة ويجري تقليد التراث الشرقي فيها، ونماذجه المبتكرة تعرض اليوم في متاحف مختلفة.

على الزخرفة الداخلية لقصر الجزيرة للخديوي إسماعيل (اليوم هو فندق الماريوت في الزمالك)، وأثناء وجوده في القاهرة بدأ يعمل على سكتشات ولوحات لإعادة استخدامها في أعماله بعد ذلك وكان يرافقه أيضاً مصوّر يلتقط الصور لبعض معالم القاهرة، واهتم بشكل

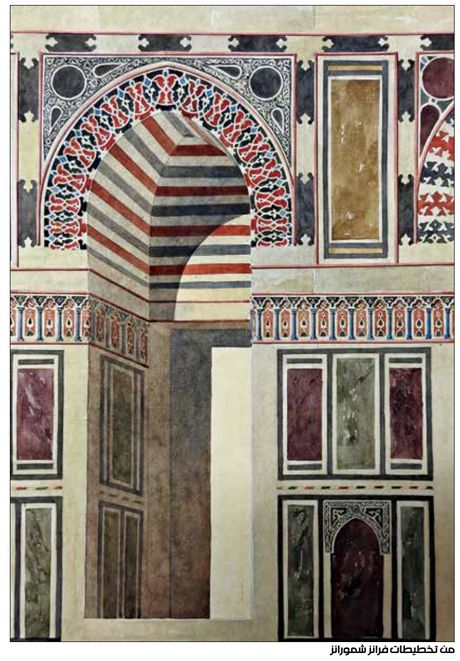

من تخطيطات فرانز شمورانز

يميّز الباحث بين ثلاثة أنماط من الاستشراق المعماري

اختار عدة معماريين غربيين ليتناول تجاربهم تباعاً

مشاريع لاحقة

اختار لافي عدة معماريين سوف يتناول تجاربهم تباعاً؛ يفسر ذلك بأن «العامل المشترك بين الذين اخترتهم هو العمل الأكاديمي بهدف التوثيق أو إعادة الإنتاج، أعني بالعمل الأكاديمي العمل المعماري بدون أي أيديولوجيا خاصة، سالقي محاضرات عن جيل بورغوان Jules Bourgoin وهو معماري فرنسي اشتغل على عمارة القاهرة ووثق أعماله حتى أن لجنة حفظ الآثار العربية استخدمت رسوماته في الترميم وإعادة بناء العناصر المعمارية، المعماري الثالث هو بريس دافين Prisse d'avennes صاحب كتاب «الفن العربي في القاهرة»، والمعماري الرابع هو باسكال كوست Pascal Coste، كبير المعماريين في عهد محمد علي، وعمل على توثيق العناصر الفنية في عمارة القاهرة، أما المعماري الخامس فهو الإنكليزي أوين جونز Owen Jones وقد وضع كاتالوغاً خاصاً بفلسفة الفن الإسلامي في القاهرة وغرناطة».

في غياب الارشيف

يلفت معاذ لافي (الصورة) الى صعوبة الوصول الى ارشيف ومراجع تخص هؤلاء المعماريين او الاستشراق المعماري بالعموم، ويذكر انه اضطر الى التواصل مع متحف في فيينا ليصل الى وثائق حول فترة وجود شمورانز في القاهرة، والذي امده بلوحات واسكتشات نادرة، وتبين ان المتحف نفسه لم يستخدمها، وانها محفوظة في المخازن. من هنا يعمل حالياً على كتاب يكون مرجعاً للدارسين والمهتمين في هذا الصدد عربياً.

إطلالة

في ركاب علاقة مركبة

ملهاة العلم ومأساة العالم

إذا كان الإنسان من قبل عبداً للطبيعة، فيخشى أنه أصبح عبداً للعلم، لا يهمه أكثر من تحقيق انتصارات علمية من دون ضمان نتائجها الكارثية على الأرض

فوّاز حداد

حققت المحاولات التي بذلت للسيطرة على الطبيعة، انتصاراً للبشرية، بات الإنسان سيّدها، ولم يعد عبداً لنزواتها وأهوائها، غدا من الممكن توقّع غضبها من زلازل وأعاصير وهبوب رياح وعواصف. عموماً أخذ العلم يتنبأ بالكوارث، فيُستعد لها، ما يقلّل من أخطارها، ويجعل أضرارها بالحدود الدنيا، وإن من دون نجاح كبير. كما عمل العلم على القضاء على الأمراض المستوطنة والأوبئة والإسهام بمعالجات لأمراض كانت تبدو مستحيلة الشفاء، ونلمس تأثيره في زيادة متوسّط عمر الإنسان بشكل تصاعدي حتى قارب الخامسة والسبعين في البلدان المتقدمة.

بيد أنه إذا كان الإنسان من قبل عبداً للطبيعة، فيخشى أن يصبح عبداً للعلم، لا يهمه أكثر من تحقيق انتصارات علمية من دون ضمان نتائجها الكارثية على الأرض، مجرد ألا يخفق في تحقيق إنجازات تحسب له.

يمكن تقدير هذه الأخطار، بالنظر إلى أنه لن يصبح عبداً للعلم فقط، بل للحكومات أيضاً. أي أن يكون العلم أسير حكومات طموحة تستغله في صراعات عالمية، لا تخفي نوايا الهيمنة على شعوب أخرى، بإنتاج قنابل ذرية ونووية، ومختلف أنواع الأسلحة من البنادق إلى الصواريخ، وتحويل طائرات الركاب إلى طائرات قاذفة ومقاتلة، ودائماً في طور تحسين قدراتها القتالية، فحثّت العلماء على تطوير أسلحة ذات قدرة عالية على التدمير، وتطوير أسلحة القتل عن بعد، مع تحقيق أكبر قدر من الإصابات المميتة،كذلك برامج للتجسس تُستخدم للسيطرة على الدول الصغرى. كل هذا يتم بدعم من برامج حكومية مضخرطة في عقدة التنافس مع الدول الأخرى سعياً للتفوق عليها، ما يحلّل الفساد بشراء عملاء وضمائر واستزلام رؤساء دول تابعين لسياساتها ما يذهب بهم إلى شراء علماء، لا همّ لهم سوى تحقيق انتصار علمي مهما كان شأنه، دونما النظر إلى استخداماته الحربية، من دون الحق بتقييد استعمالاته.

كما أسهم العلم في خراب البيئة والمناخ؛ وظهور بعض أمراض غير معروفة سابقاً وأوبئة (آخرها الكورونا، يشك أنها قادمة من المخابر) وتداعي التواصل الاجتماعي الفعلي إلى الحدود الدنيا، والاكتفاء بالتواصل الافتراضي، كذلك الاستخدامات السيئة للتكنولوجيات الحديثة التي تحد من الحريات الشخصية، بوضعها مواطنيها تحت الرقابة في أصغر دوائق تفاصيل حياتهم، فتدخل إلى غرف النوم، عدا تمكّن أفراد من انتهاك خصوصية الآخرين، ومنهم شخصيات عامة؛ سياسيين وفنانين وسيدات ورجال أعمال. وقد يصبح العلم وسيلة لابتكار وسائل تعذيب نفسية لإخضاع البشر في المعتقلات.

لا ريب، عاد تقدّم العلم في القرن الواحد والعشرين بالكثير من الفوائد والمنافع على البشرية، إلّا أنّه لم يعد من الممكن في بعض الأحيان السيطرة على هذا التقدّم، ولا حتى استيعابه، بعدما اقتحم الحياة مثل أخطبوط وزّط البشر في متاهاته، وإن سهّل أمور حياتهم، لكن بقدر ما أصبح الإنسان بحاجة إليه، بقدر ما بات يدفع باهظاً ثمناً لاختراعاته التي لم تكن موجودة، وأصبحت لا غنى عنها. فالإنسان الذي حاول في البداية السيطرة على الطبيعة، يبدو اليوم على حذر من العلم، ويتساءل عن سبل التحكّم به، فالاختراعات التي كانت واعدة يمكن أن تؤدي إلى دمار الجنس البشري كله، وإن كان ما يزال يبذل الوعود بمجيء عصر ذهبي، يحمل انتصارات علمية، وازدهاراً معيشياً، وإنجاز خطوات واسعة في مجال الصحة الإنسانية؛ رفاهية ووفرة، أعمار تزداد طولاً، عدالة تعمّ العالم، سلام يشمل الكرة الأرضية، غزو للفضاء، والعديد مما يصعب تخيّله، وحدها السينما بادرت إلى استثماره... ولا غرابة في انقلابه إلى حقيقة.

يتفاءل الكثيرون بقدرة العلم على تصحيح أخطائه

في الوقت نفسه، يتوقع المتشائمون انهياراً اقتصادياً، وتدهوراً في الصحة، وأوبئة لا يمكن السيطرة عليها، وكوارث بيئية، إن لم تسبقها كارثة نووية، وهجرات جماعية، وانخفاض هائل في السكان، وشعوب في سبيلها إلى الانقراض، وانتشار عنصريات تبشر بحكومات شمولية، تعود بالبشر إلى الرق.

بينما يتفاءل الكثيرون عن ثقة بأن العلم لديه القدرة على تصحيح أخطائه، بالنظر إلى فتوحاته السابقة وقفزاته الهائلة، ويتجاهلون سلبياته المدمرة، أو يمنحونها اهتماماً أقل، ويركزون على مجالات التقدّم المستمر، لكن الخطوات المظفرة للعلم، لا تحمينا من النظر بقلق عميق إلى ما قد يحدثه من أضرار، تنذر بأخطار حقيقية، ليس بسبب العلم فقط، بل بقادة في عالمنا يتمتعون بالغرور والغباء، وما تدمير الحضارة، وفناء البشرية، إلا من تداعيات أفكار عقول مخبولة مهووسة بالسيطرة على عالم، قد تختفي منه جراء جشعهم جميع صور الحياة.

(روائي من سورية)

ديفيد كاميريا (إيطاليا)، زيت على قماش

قصائد

الأحلامُ حين تنتهي لحظة الاستيقاظ المفاجئ

حفلة تشييع آخر الليل

محمود وهبة

نذير شؤم

في هذه اللحظة
أذكرُ جيّداً الزاوية التي خرجتُ منها
الرَّحِمَ الذي ضَمَّني لتسعة أشهر
تشقّقات البطن بعد الولادة
الملاءة التي لفّوا بها جسدي العاري عند
خروجهم من مستشفى غندور
أذكرُ جيداً الآن
أنني ومنذُ ولادتي
كنتُ نذير شؤم.

حياة جديدة

الآن في هذه اللحظة
لا داعي للسخرية
الأطبّاء الذي تجمّعوا للمداواة أفرغوا
رصاصاتهم
في قلب المريض.
على حافّة المشفى تجتمعُ نسوةٌ عاريات.
يولولنَ ويرتجفن
يدخّنَ الغولوازَ الأحمر بطلاقة غامرة.
النسوةُ يحملقنَ بي
يتمايزنَ جسدي النّحيل
ويتخايلنَ صورة الأمّ التي أنجبتني.
على الأرض جثّت النسوة
نامت النسوةُ بفعلِ المخدّر.
في هذه اللحظة
أستعدُّ
كي أبدأ حياةً جديدة.

أموات

لا بأسَ بحفلة تشييع آخر الليل
لكن مَنْ ساشيّع؟
أمواتي كثرٌ وقد زادوا على الألف
أمواتي ناموا في توابيت
أقصدُ في غُلبِ السّرير.
أمواتي سيسبقُوني إلى الجنّة كما كانوا
يزعمون
صاروا صفراً على شِمال.

تهويمات

الأحلامُ حين تنتهي لحظة الاستيقاظ
المفاجئ
الورودُ حينَ تذبلُ في الخريف
العصفورُ حينَ يشردُ ويبتعدُ عن القطيع
النّهر حين يغيّرُ مجراه
الليلُ حين يطول
النّهارُ إذ يتمطّى
السّمكةُ حين تُعلّقُ على الجدار
التفاحةُ حين تنفجرُ وتغور
الأرضُ إذ تُفرغُ حمولتَها
السّيلُ حين يأتي بغتةً ويلا إنذار
عمودُ الإشارة حين يرتطمُ بالسيّارة ويخلعُ
الرصيف
النادلُ إذ يدورُ حول الطاولة
الكرامةُ حين تُدهسُ تحت الأقدام
الأمهات وخوفهنّ المستمرّ
الآباء حين يضرسون
السمُّ حين يصيرُ ترياقاً
الطفلُ حين يصرخُ خارجاً من الفرج
الأسرارُ حين تُدفَنُ وتنتشرُ
القلبُ حين ينفطرُ من الحبّ
التابوتُ حين يحتضنُ ميتاً
السّوادُ الأعظمُ حين يغطي جدران البلدة أيّام
عاشوراء
الرسالةُ حين تغادرُنا بعد أن نضغط زرّ
الإرسال
التفاصيلُ المنسيّةُ حين تعودُ بقدرة قادر
المودّة والرحمةُ لذوي القربى حين نموت
الشفاءُ العاجلُ للمرضى حين نبتهلُ بالدعاء
الرصاصةُ الطائشةُ حين تخترقُ صدرَ
عاشقِ ابله
الحسناواتُ حين يُلطّفنَ الأجواء
بابتساماتهنّ الماكرة
الواجبُ المدرسيّ حين ننجزهُ قبل الحصّة
بقليل
المسكراتي حين يوقظنا مع الفجر ولسنا
بصائمين
الياساتُ حين تحتضنُ العَرَق والروائح
النّتنة
المؤمنُ حين يقرأ الأذكار
الناقةُ حين تصيرُ جَملاً
الخرافُ حين تتحضّرُ للذبح
الأدرينالينُ حين يرتفع
القهوةُ إذ تُعدّلُ مزاجاً.

(شاعر من لبنان)

«العاشقة»، سمعان خوّام، زيت على قماش

فعاليات

ينظّم **مركز دراسات الترجمة** التابع لـ «الجامعة الاميركية» في القاهرة، محاضرة افتراضية عبر تطبيق زوم الالكتروني بداية من السابعة من مساء اليوم الثلاثاء، بعنوان **ترجمة الفلسفة الإسلامية في العصور الوسطى إلى البرتغالية** وتقدّمها الباحثة **كاتارينا بيلو**.

تلقي الكاتبة والمخرجة الفلسطينية **ليانا بدر** (1950)، عند السابعة والنصف من مساء غد الاربعاء، المحاضرة السنوية التي تنظم ضمن جائزة سيف غباش للترجمة الادبية العربية. تتناول بدر في محاضرتها **عن ابتكار موزاييك الأدب**، الجو الذي نشأت فيه في القدس مسقط راسها، وتتحدث عن تنوع الكتابات والجنسيات والأشخاص الذين واجهتهم في سنوا تها الاولى في المدينة.

يتواصل معرض **كرز** للفنان التشكيلي المصري **مصطفى ربيع** في غاليري **الزمالك** بالقاهرة حتى نهاية الشهر الجاري. يتناول الفنان بأسلوب المدرسة البدائية الطبيعة وثمرة الكرز بشكل خاص، والتي يعتبرها تذكر بالربيع والهشاشة، نجد حبات الكرز مبعثرة على القماش وملابس النساء وفي خلفيات لوحاته.

تقيم **منصة الفن المعاصر** (كاب) في الكويت، امسية نقاشية لكتاب **بوب آرت** (تاشن) الذي كتبه الفنان والمصور الفوتوغرافي الروسي الالماني **كلاوس هونيف** (1939/الصورة)، تحاضر فيها المعمارية الكويتية دانة الراشد عند السابعة من مساء الاربعاء 18 من الشهر الجاري، حيث تبث الجلسة افتراضيا على حساب المنصة في إنستغرام.